ثيمة الصحراء في الديوان الشعبي (بسمات من الصحراء) لـ: حسان درنون –قراءة جمالية–

The sahara theme in popular poems (smiles of sahara) of Hacen darnoun -Reading Aesthetics-

د.مصطفى بوجملين

جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي– (الجزائر)، safo.mosta87@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/04/26 تاريخ القبول: 2020/06/04 تاريخ النشر: 2020/06/30

ملخص:

لا مشاحة في أنّ القصيدة الشعبية لون شعري يستمدّ قوته من أصالة المسمّيات و الأخيلية، التي تختمر في ذهنية المبدع الشعبي وهي في جوهرها مستقاة من بيئته (الصحراوية/ البدوية).

عليه، فإنّنا سنحاول الاقتراب جماليا من بهو القصيدة الشعبية قصد استقراء تيمة (الصحراء) داخل الديوان الشعبي المعنون بـ(بسمات من الصحراء)، مراعين في ذلك أبعاد تجلّيها فيه.

وبناء على ذلك، فإنّ مكاشفتنا النقدية لهذا العنوان تتأتى عبر تقويض الإشكاليتين الآتيتين:

– ما الأبعاد الحيزية التي يجلّيها مكوّن (الصحراء) في ديوان (بسمات من الصحراء)، باعتبارها حيّزا طبيعيا و وطنيا؟

– ما سياقات التجمّل الفني الذي وظّف فيها دال (الصحراء) في قصائد الشاعر؟

كلمات مفتاحية: قصيدة شعبية– الصحراء– مبدع شعبي– حسان درنون

Abstract:

The popular poem was considered as a poetic genre that draws its strength from the authenticity of names and imagination fleeing in the mind of the popular innovator, and which comes in its essence from its Bedouin and Sahrawi environment.

we will try to come closer aesthetically to the charm of the popular poem for the extrapolation of the theme of "sahara" inside the recueil entitled "Sourirs Sahara".

On the basis of what has been said, comes our critical approach to this theme which is deconstructive of the two following problems:
- what are the spatial dimensions highlighted by the sahara in the recueil entitled "Sourirs du Sahara" considered as a natural and national space?
- what are the aesthetic contexts in which the meaning "sahara" was used in the poems of the poet?
Keywords: popular poem *;* sahara *;* popular innovator *;* Hacen darnoun
JEL Classification Codes: …, …, …

المؤلف المرسل: د. مصطفى بوجلين، **الإيميل**: safo.mosta87@gmail.com

1. مقدمة

شغلت (الصحراء) حيّزا مهما في قصائد الشاعر (حسان درنون) التي ضمّها ديوانه الشعبي الذي وسمه بـ(بسمات من الصحراء). ولعلّ اللافت في هذه العنونة هو تثبيت الشاعر لدال (الصحراء) فيه وهذا ما يعطينا مؤشرا واضحا على هذه الحظوة الكبرى التي اختصت بها (الصحراء)، والتي تردّد ذكرها في سياقات عدة في ديوانه؛ حيث تتلخص أغراضها في : التمجيد، الفخر، الانتماء، الهوية...وغيرها.

وبهذا، فإنّ الإشكاليتين المركزيتين لهاته القراءة النقدية تتلخصان في الآتي:

ما أشكال التجلّي لثيمة الصحراء في ديوان (بسمات من الصحراء) لـ: (حسان درنون)؟

وما طبيعة الأحياز الدينامية للفضاء الصحراوي في قصائده؟

2. تشظّي الحّيز الصحراوي

1.2 الحيّز الحربي:

أخذت الحرب جانبا كبيرا من حياة الأمم قديمها وحديثها؛ فالشعوب القديمة ((اهتمت بالحروب من أجل السيطرة والبقاء، ولم تكن تكترث لأي قانون في المعارك حيث القتل والتشويه والأسر والتعذيب فهذه الصراعات جميعها التي تؤدي إلى الموت ما هي إلا حياة، فموت شعب يعني حياة لشعب آخر))[1].

ولهذا، فإنّنا نجد لهذا المعنى المسطّر في هذا القول توافقا مع ما سنذهب إليه في هذا المطلب البحثي حيث سنسلّط الضياء على صور الصحراء في المشهد الحربي عند الشاعر الشعبي (حسان درنون) حين صوّر الآلة الاستدمارية الفرنسية، التي قتلت وأسرت وشرّدت أبناء الجزائر؛ الذين استبسلوا لمواجهة هذا التعنيف الهمجي الوحشي عند الآخر الغازي.

ولقد تجلّت (الصحراء) الحربية في سياق الفخر، الذي جعله الشاعر (حسان درنون) عنوانا لها إذ يأتي ذكر (الصحراء) في سياق تخليد الثورة النوفمبرية، وهذا ما يوضّحه (حسان درنون) في قصيدته (المسيرة):

شعلوها حرب عالمغتصبين *** صحاري وتلول سماء وبحار[2]

في هذا القول الشعري يجعل الشاعر من (الصحراء) متصدّرة للأحياز (المنتفضة/ المهاجمة المضرمة/الزاحفة) وما يزيد هذه اللوحة الحربية وهجا هو ورودها — أي الصحراء- بصيغة الجمع (صحاري) وكذا جعلها نكرة غير معلومة؛ كي يدلّل الشاعر (حسان درنون) بذلك على أنّ معركة التحرير لا تتأطر في نطاق صحراوي محدّد؛ إذ المعركة شمولية، وذات نطاق ممتد شاسع.

وفي سياق آخر يتبدى الحيّز الصحراوي حربيا في دال (الهقار) -باعتبارها أبرز الأحياز في الصحراء الجزائرية- وهو ما نفهمه من قول الشاعر في قصيدته (ثورة أول نوفمبر 1954):

من جرجرة ولاوراس حتى للهقار *** نيران لعدو بدمائنا طفات[3]

فهنا يجلّي الشاعر الحيّز الصحراوي (الهقار) باعتباره معلما حربيا أيّان الاستدمار الفرنسي الغاشم ولكنه لم يورد دال (الهقار) في سياق توصيفه وكفى؛ ولكنه في معرض الإشادة بالبطولات التي حقّقت حقيقة لا متخيّلة؛ إذ جابه الآلة الاستدمارية المندفعة بنيرانها الملتهبة بدماء أبناء الصحراء الطاهرة الزكيّة .

وبذلك، فإنّ الشاعر يجلّي الصحراء في سياق فخري؛ لأنّها أبانت طيلة المعركة التحريرية عن قوة رجالها وأبنائها الأشداء الغيورين على وطنهم المغتصب المستلب.

2.2 الحيّز الطبيعي:

لقد أمست الطبيعة منهلا للشعراء ينهلون منه صورها المشرقة، التي يقذفون فيها أحاسيسهم ومشاعرهم التي تختلج ذواتهم؛ إذ إنّها مصدر أساس للإبداع الشعري ((فهي تمثّل خلفية حيّة باستمرار في وعي الشاعر ولا وعيه بتفاعلها معه. فتبدو كما لو أنّ التوتّر الذي يبدو عليها هو نفسه ما في ذات الشاعر أو العكس))[4].

وفيما يختصّ بمسألة انتماء (الصحراء) الطبيعي إلى (الجزائر) فإنّها تتبدى جليّا في قوله من قصيدته (المسيرة) حيث يقول:

أرض الجزائر للجزائريين *** من شمالها لجنوب الهقار[5]

لقد اختار الشاعر (حسان درنون) –ههنا– حيّزا جغرافيا بارزا في الصحراء، والمتمثّل في (الهقار)؛ ذاك أنّه معلم طبيعي صحراوي عالمي وينضاف إلى ذلك خاصية الطابع السياحي التي تسمه. كما أنّه يشي بمظاهر (العراقة/ التاريخ/ الجمال).

2–3 الحيّز الاقتصادي:

إنّ تغنّي الشاعر (الشعبي) بثروات الصحراء وخيراتها يعدّ سلوكا إيجابيا ساميا، ذاك أنّه يعزّز قيم (الاكتفاء/ الثراء/ الاستقرار) في بلاده.

لهذا فإنّنا سنعمد إلى الوقوف عند أقواله التي يجلّي من خلالها الصحراء اقتصاديا، والتي نستهلها بقوله:

في الصحراء البترول ناسوا سهرانين *** سوناطراك الباهية تجيب الدولار[6]

في هذا القول الشعري يمكننا استخلاص قاعدة أساسة مؤداها ((إن لم تملك الصحراء برمّتها، فإنّها ستملكك بخيراتها وثرواتها))، وهو الأمر الذي أكّد عليه الشاعر (حسان درنون) في هذا البيت الشعري حيث نوّه الشاعر بأهم مصدر اقتصادي للجزائر، والمتمثّل في (البترول).

إنّ اللفتة الفنّية في هذا التركيب الشعري تكمن في تقديم الأصل على الفرع؛ وبيان ذلك استهلاله بدال (الصحراء) الذي أعقبته مفردة (البترول)؛ وهو في ذلك – وفق تصوّرنا – يؤكّد على قيمة الحيّز الطبيعي (الصحراء)، الذي تختزن بداخله الينابيع البترولية، فهي بذلك – أي الصحراء– الخير كلّه، والعطاء الممتد الذي لا ينضب.

ولعلّنا نلمح جليّا في هذا البيت الشعري تقنية (عصرنة اللغة)، وهذا ما يجلّيه دال (سونطراك)، التي عدّت أبرز الشركات البترولية الجزائرية الحديثة.

وفي سياق شعري آخر يتكرر ذكر الحيّز الاقتصادي الصحراوي عبر الترميز له بمفردتي (البترول/ الغاز) على اعتبار أنّهما منتوجان صحراويان، وهذا ما نقرؤه جليّا في قوله:

والغاز والبترول بلادنا فيه تعوم *** استكفينا وللعالم نصدّر ونحوّل[7]

وفي سياق آخر نلحظ ذكرا للحيّز الاقتصادي الصحراوي، الذي تمثّله مدينة (الحاسي)، باعتبارها الحاضن لمجموعة كبيرة من الشركات الاقتصادية العاملة في الصحراء، وهذا ما دلّ عليه قوله:

رويبة والحاسي مفخرات *** لا شيئ تحوّس يا مكّار[8]

بناء على ذلك، فإنّ (الصحراء) قد تجلّت في هذه الأمثلة الشعرية في ثوب المغدق الواهب لأبنائها بخيراتها الجمّة (البترول/الغاز)، فأمّنت بذلك وطنها الجزائر اقتصاديا، وجعلها قطبا مصدّرا لأهم المنتوجات العالمية.

3. الحيّز الصحراوي جماليا

1.3 المكوّن الانزياحي:

لا مشاحة أنّ مكون الانزياح مكون جمالي مهم في النظم الشعري الشعبي؛ إذ إنّنا نستشفه بوضوح في سياقات تعبيرية داخل ديوان (بسمات من الصحراء)؛ حيث يجلّي الشاعر مكانة (الصحراء) عبر أحد هذه التقنية الأسلوبية، والمتمثّلة تحديدا في (التقديم والتأخير)، وهذا ما دلّ عليه قوله السابق الذكر:

شعلوها حرب عالمغتصبين *** صحاري وتلول سماء وبحار[9]

إنّ فنية تقديم (الصحراء) على (التل) لم يك جزافيا لا يحمل المبرّر والبرهان الحق؛ فإن كانت رصاصة الأوراس التلّي قد رفع صداها في فضاء الجزائر المغتصبة، فإنّ المعركة الحقّة قد تجنّدت لها جحافل نضالية من أقاصي الصحراء الجنوبية إلى شمالها المتاخم للتلّ الأشم (الزيبان).

إنّ التبرير الذي يقدّمه الشاعر (حسان درنون) عن هذه القضية قد جاء في سياق إجلاء صورة أهل الصحراء المقاومين؛ حيث تعددت معاركهم البطولية في شتى الأحياز الصحراوية، وهذا ما عبّر عنه قوله في قصيدته الموسومة بـ(المقاومة الشعبية):

بوعمامة ضرب في قلب اللئام *** وشكى المستعمر من ذوك الطعنات

بوزيان تنفذ فيه حكم الاعـدام *** في ثورة الـزعاطشة بين كـرمـات

محمد بن عبد الله بلاشي تسـئام *** في ورقـلة والاغواط ضرب بثبات[10]

وقاوم الحداد بكفـاح العـظام *** والمقـراني ضرب وأرّخ صفـحـات

وفي سياق آخر خلصنا إلى أنّ تقنية (التقديم والتأخير) يأتي بها الشاعر انطلاقا من مقامية الحدث الثوري وبيان ذلك تقديم أحياز (شمالية / تلية) على حيّز (الصحراء)، من مثل قوله:

من جرجرة ولاوراس حتّى للهقار *** نيران العدو بدمائنا طفات[11]

إنّ تأخير دال (الهقار) يقرأ نقديا – وفق نظرنا – انطلاقا من عنوان القصيدة التي ورد فيها، والموسومة بـ(ثورة أول نوفمبر 1954)؛ لأنّ شرارة الثورة الحقة قد اشعل فتيلها في جبل الأوراس التلّي الأشّم.

لعلّ ما يؤازر قراءتنا هذه ما نلفيه في بيت شعري آخر من قصيدة (عهد لنوفمبر)؛ والذي نصّه الآتي:

في قمة لاوراس أوّل طلقة نار *** والثورة اندلعت صحاري وتلول[12]

بهذا، فإنّ الشاعر (حسان درنون) قد نجح إلى حدّ ما في إقامة جسر لغوي، يربط بين العنوان المركزي والتركيب الشعري داخل متنه.

أمّا بخصوص الشكل الآخر للانزياح؛ فإنّه يتمثّل في الصورة الجمالية – باعتبارها انزياحا دلاليا-؛ إذ دبّج من خلالها الشاعر صورة الصحراء؛ حيث نمثّل لذلك من قصيدته المعنونة بـ(غفوة)، ونصّ قوله الآتي:

يا قاصد لارض الصحـــراء ابلاد العـــــربان

سلملـــي عالزينة السمراء أم لعيون الســـود [13]

هنا يتبدى اللون التصويري عبر تقنية الكناية، والتي يؤسس لها دال (السمراء)؛ حيث يكنّي الشاعر بها ليحيل من خلالها إلى امرأة الصحراء التي تميزها السمرة؛ حيث تحمل من خلالها دلالات (النظارة /الجمال البهاء)

هذا المعنى يكاد يكون متطابقا مع قول الشاعر الجزائري (صلاح الدين باوية) – وهو من النظم الشعري الفصيح-:

سمراء أنت الحب يا سمراء *** ماذا يقول ويكتب الشعراء

بذلك، فإنّنا نجد في توظيف هذه الصورة البلاغية – الكناية – الأثر الدلالي البليغ؛ خاصة أنّه جيء بها في سياق المدح، الذي يرفع من أثيرية الصورة الصحراوية المزدانة باللوحة الإنسانية النظرة – المرأة الصحراوية–

2.3 المكوّن الرمزي:

لا مناص في أنّ الرمز لمحة من لمحات الوجود الحقيقي الذي يستحيل ترجمته بلغة عقلية، فهو ((وسيلة من وسائل التعبير عن وحدة الإدراك والتجربة؛ بل إنّه يؤدي دور المشجب الذي تعلق عنه المعاني والدلالات فضلا على أنّه يساعد على تكثيف التأثير العاطفي))[14].

ويمكن تلمّس تقنية الرمز الذي استخدمه الشاعر (حسان درنون) ليجعل منه دالا عن الصحراء في قوله:

رجعت الكرامة الفلاح المحروم *** يزرع فيها أشجار وفاكهة ونخل [15]

هنا، يفخر الشاعر بأمجاد (نوفمبر)، الذي أعاد للجزائر أحيازها (المغتصبة/ المستنزفة/ المستدمرة) والتي من ضمنها (الصحراء)؛ وبخصوص مظهر الترميز في هذا القول الشعري فيلخّصه دال (نخل)، باعتباره رمزا طبيعيا دالا عليها – أي الصحراء–؛ فالشاعر – ههنا – قصد تبيان الحيّز الصحراوي عبر معلم طبيعي يحمل السمات (الثبات/ القوة/ الشموخ/ الأصالة...).

إنّ القيمة الحضارية لـ(النخل) قد جعلت الشاعر يوردها في سياقين شعريين من قصيدته المعنونة بـ(عروسة الزيبان)، وبيان ذلك قوله:

فيها ولايتنا زينة وتمّبل *** نخيل وأشجار وسواقي وفلاحة

وكذا قوله:

ولايتنا واسعة تفضّل وتحوّل *** هاذي بسكرة أرض النخلة الدوّاحة [16]

ولكي يزيد الشاعر من وهج هذا الرمز الطبيعي –النخلة– فإنّه يعمد إلى التوصيف أكثر؛ حيث يشير إلى أبرز وأبهى ألوانها في واحة الزيبان –بسكرة– والمتمثّلة في (دقلة النور)، التي تعدّ أجود أنواع التمور وأنصعها بريقا، وهذا ما عبّر عنه قوله:

ودقلة النور زينة كيف لعسل *** نعمة من ربنا هاذيك الصراحة

فهنا يتحدد هذا الدال الرمزي –دقلة نور– في سياق (المدح/ الفخر) بمنتوجات الصحراء الطبيعية فلا شيء أغلى وأنفس من النخلة السامقة الشامخة في رمالها وواحاتها الشاسعة.

ولعلّنا نجد في هذا التوصيف تقاربا مع ما ذكره الشاعر الشعبي (عبد القادر برمة)[17] في وصفه لمدينته (أولاد جلال)، وذكره لأبرز ما تحويه هذه المدينة من منتوجات طبيعية أصيلة، والتي كان أهمها (دقلة النور) إذ نلتقي مع قوله الواصف لها، والذي بيانه الآتي:

دقلة نور مصنعة بتمر دلواح *** ذهبي يا في اللون صفرا فتّانه

4. خاتمة:

في الختام هذا التقصّي النقدي فإنّنا نخلص إلى أنّ ثيمة الصحراء بتجلياتها الحيزية و الجمالية قد جعلتنا نقف أمام تلوّنات الحيّز الموظّف في هذا الديوان الشعبي، والذي أبان الشاعر من خلاله عن الجماليات التي تسم (الصحراء)، والتي أوردها عبر سياقات متباينة. وكذا طرقنا للشق الجمالي فيها والذي تأسس عبر المكون الانزياحي و الرمزي، حيث رأينا براعة الشاعر في ممارسة اللعبة الفنية الأنيقة حيث أثبت عبرها مقدرة المبدع الشعبي على مجاراة نظيره الناظم بالشعر الفصيح.

وفيما يتعلق بالنتائج البحثية النهائية لهذه الدراسة النقدية، فإنّنا نسوقها في الآتي:

– مكّن فضاء الصحراء الشاعر الشعبي (حسان درنون) من نفث معان ودلالات في نظمه قد يعجز عنها لو ركن إلى مظاهر مادية أخرى؛ إذ إنّها مشبعة بدلائلية عميقة في ذاته التي تدرج تحت مظلتها، خاصة أنّه منها، ويكتب عنها.

– تشظي الحيزة –باصطلاح عبد الملك مرتاض– للصحراء قد دلّنا على معرفة الشاعر (حسان درنون) بحجم هذه الاتّساعية الحيزية لها ؛ طبيعيا، وحربيا، واقتصاديا؛ إذ إنّه بمثابة العدسة التصويرية الثاقبة التي تنفذ إلى نواة الأشياء لتستنطق كنهها وأطيافها؛ حاصة أنّ سمات الصحراء متعددة (الاتّساع الجغرافي الثراء الطبيعي/ الجمال المكاني/ عراقة التقاليد/ أصالة الهوية...).

– شكّلت المعمارية الجمالية لدال (الصحراء) في سياقات (المدح/الفخر) معلما شكليا بارزا، ينمّ على صنعة نظمية جمالية يسمها المهارة عند الشاعر (حسان درنون)؛ خاصة أنّه يعدل بالدوال عن المباشرة إلى الإيحائية الرمزية، التي تجعل القارئ باحثا كشافا متحرّيا عن تجليات الدلالة العميقة والمعنى الأسلوبي الباطني.

5. قائمة المصادر والمراجع:

أ– المصادر:

– حسان درنون، بسمات من الصحراء، (د.ط)، مطابع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، (د.ت)

ب– المراجع:

– ابتسام نايف صالح أبو الرب، صور الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2006

– كاميليا عبد الفتاح، القصيدة العربية المعاصرة، (د.ط)، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، مصر، 2006

– علي بولنوار، دلائلية النبض في القصيدة الشعبية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، ع5، 2009

6- الهوامش

[1] ابتسام نايف صالح أبو الرب، صور الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2006، ص29

[2] حسان درنون، بسمات من الصحراء، (د.ط)، مطابع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، (د.ت)، ص29

[3] المصدر نفسه، ص71

[4] علي بولنوار، دلائلية النبض في القصيدة الشعبية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، ع5، 2009، ص255

[5] حسان درنون، بسمات من الصحراء، ص30

[6] المصدر نفسه، ص33

[7] المصدر نفسه، ص83

[8] المصدر نفسه، ص130

[9] المصدر نفسه، ص29

[10] المصدر نفسه، ص67

[11] المصدر نفسه، ص71

[12] المصدر نفسه، ص76

[13] المصدر نفسه، ص169

[14] كاميليا عبد الفتاح، القصيدة العربية المعاصرة، (د.ط)، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، مصر، 2006 ص537

[15] حسان درنون، بسمات من الصحراء، ص81

[16] المصدر نفسه، ص177

[17] شاعر شعبي من مدينة (أولاد جلال) -التي تعدّ أكبر دوائر ولاية (بسكرة)، والمشهورة بشعرائها الشعبيين- وهذا البيت الشعري مستلّ من قصيدته المعنونة بـ(في أحضان أولاد جلال)، التي ضمّها ديوانه الموسوم بـ(الكنز المدفون في الشعر الملحون).